هينى والألم والإيمان

١

هينريك هينى فى طليعه شعراء ألمانيا الغنائيين وكتابها المعدودين المبرزين ، وتمتاز كتابته بعمق العاطفة ، وبلاغة التأثير ، والبساطة المشرقة ، وما يتخللها من الفكاهة المرة والسخرية اللامعة اللاذعة . ولم يكن هينى من هؤلاء الغزاة الفاتحين فى عالم الأدب والفكر الذين يفرضون شخصيتهم على جيلهم ، وينتزعون الإعجاب والتقدير ، ويحملون الناس حملا على الإصغاء إليهم ، والعناية بأمرهم ، والاشتغال بمؤلفاتهم ، وكتاباته اعتراف صريح بالإخفاق ، وتنكر الآمال ، وخيبة الظنون ، ومن ثم اعتصامه بالسخر والمعابثة ، واستعذاب الألم ، والترحيب بالنكبات المترادفة والصدمات المتتابعة .

وعجز هينى عن إقناع العالم برسالته ، ونكوله فى تثبيت مكانته ، وتأكيد شخصيته ، جعل النقاد ينقسمون فى تقديره إلى فريقين ، فريق يسرف فى إعلاء قدره ، وإعطائه أكثر من حقه ، وفريق آخر يبالغ فى الغض من شأنه وتهوين أمره

وقد كان هينى يكثر من التعلق بالأفكار الجديدة ، ويحسن استقبالها ، والتغنى بها ، ولكنه لم يحسن الملاءمة بين هذه الأفكار الجديدة والاتجاهات المتعارضة والتيارات المتناوحة ، ولذا تلمح فى شعره ونثره آثار الفوضى والاختلاط والتناقض والتردد بين المذاهب المختلفة ، وكان يضخم هذا العيب

ويبرزه فى صورة واضحة جلية حماسته المشبوبة وطبيعته المندفعة المتقحمة ، وقد جعله ذلك يهاجم بالهجاء القارص والسخرية الساخرة أخلص أصدقائه وأقرب الناس إليه حتى أصبحت حياته محفوفه بالعداوات الشخصية ، وغبار المجادلات والمشاحنات والمعارك الحامية الوطيس .

وقد ولد هينى فى الفترة الفاصلة بين القرن الثامن عشر والقرن التاسع عشر ، أو كما قال هو عن نفسه « تلاقت فوق مهدى آخر أشعة قمر القرن الثامن عشر وأضواء فجر القرن التاسع عشر المتبلجة » وكان يهودياً ألمانيا نشأ فى منطقة الراين التى تتلاقى فيها ألمانيا وفرنسا ، وظل طوال حياته متردداً بين المسيحية واليهودية والأرستقراطية والديمقراطية ، والنزعة الإتباعية والنزعة الإبداعية ، والثورة والمحافظة ، وكان يضاف إلى ذلك الأزمات العسراء التى استهدف لها لعجزه عن تدبير أحواله المعيشية وسياسة أموره الدنيوية .

وقد أخفق هينى محامياً ومدرساً ، وكانت حياته الأدبية كفاحاً مستمراً لمجاهدة الفقر ودفع غوائله ، ولم يوفق فى مجال الحب ، وطعن فى قلبه وأصيبت كبرياؤه ، فملأ ذلك كله حياته حزناً وألماً ، وكان يحاول تهدئة خواطره والتسرية عن نفسه بالرحلات والأسفار والتجوال بين الجبال وعلى شطوط البحار ، وكان يجد فى اصطفاق أمواج البحر وتلاطم غواربه ما يلطف نوائر نفسه ويهون من همومه وأشجانه ، قال عن نفسه « أحب البحر كما أحب روحى ؛ وكثيراً ما يبدو لى أن البحر هو صميم روحى بعواصفه الثائرة ، وهدآتها الخادعة الغرارة » .

ونبا به المقام فى ألمانيا ، فلجأ إلى فرنسا ، وعاش بها أكثر أيامه من سنة ١٨٣١ حتى موته فى سنة ١٨٥٦ وعرف بها ما تيلد كرسنس ميرا التى تزوجها بعد ذلك بالرغم من عدم وجود أية رابطة روحية أو صلة فكرية بينها وبينه .

وبدأت تظهر بوادر العلة التى لازمته . وقد ظل هينى يحارب الفقر والمرض

فى جلد وصبر عجيبين حتى خر صريعاً فى ميدان الجهاد بعد أن برح به الداء ، وظل طريح الفراش ميئوساً من سلامته زمناً طويلا قاسى فيه الآلام والأهوال .

وفى ليلة من الليالى الساهدة القاسية التى أرخت سدولها عليه بأنواع الهموم والآلام لتبتلى صبره ، وتمتحن احتماله وتجلده ، استولى عليه فجاءه الخوف من الموت وطاح بصبره ، فصاح فى حرقة الألم قائلا «الله» ! .

ولكنه عاد فوبخ نفسه ولامها قائلا لها «ولكنه غير موجود ! » وكأنما عز عليه أن يسلم بوجود الله ، ويلتمس غفرانه ، ويستنزل رحمته ، بعد أن عاش قرابة نصف قرن وثنيا لا يؤمن بغير المحسوس والملموس ، وينكر إله المسيحيين واليهود .

وبداله أنه يخون عقيدته ويتنكر لمذهبه ، وأن فى هذا التراجع ما ينم على الجبن والتخاذل والهزيمة ، فلقد عاش وثنياً ، فهو يؤثر أن يموت كذلك وثنياً .

ولكن عبثاً كان هذا الرجل الشقى الوصب يحاول أن يرغم نفسه على الخضوع لمنطقه الخاص وتفكيرة الجامح ، فقد كان هذا الشاعر الموجع النفس والجسم حينما يقسو عليه الألم ، وتشتد به العلة ، يصيح وقد ضغط على أسنانه وتفصد العرق على جبينه «خذ بيدى يارب ! رحماك يارب ! » .

فهل كان هذا عقيدة ؟ وهل كشف له الألم عن وجود الله الذى لم تستطع روحه أن تدرك وجوده وقدرته التى لا تحد ؟ لقد كان هينى يشعر بأنه مثل الجندى الذى يقتضيه الشرف المحافظة على موقفه ، والثباتِ فى مكانه ، وألا يستسلم حتى تفنى ذخيرته وتنفد مئونته .

والآن وقد أطلق آخر سهم فى جعبته ، ولم يعد له حول ولا طول فإنه لا يرى بأساً فى أن يعطى اللبان ويسلم المقادة وهو مرتاح الضمير ! وقد ظل طوال لياليه المسهدة وهو يضرب فى شعاب هذه الأفكار .

وقد كان هينى يرى أن الإنسانية ربما كانت عظيمة فى مجموعها جليلة الشأن ، ومن حقها أن تفخر بأعمالها الباهرة ، وسجلها الحافل ، ولكن الإنسان الفرد ما شأنه وما قيمته ؟ إنه ضئيل الشأن قليل الحيلة ؟

ولقد سبق أن أعلن هينى فى كبرياء وتأبه « أن الدين وسيلة من وسائل خداع النفس ، وأنه لا يصلح لغير الأطفال والعجائز والمرضى وضعاف العقول » وكان يعز عليه أن ترغمه الحياة على أن يدخل فى زمرة هؤلاء ، ويسير فى صفوفهم ولقد كان يعتقد قبل ذلك أن ضعف البنية واعتلال الجسدهما اللذان يولدان الأوهام والخزعبلات والتصديق بالغيبيات ، ولكنه بدأ يرى أن هذه العقيدة الإنسانية الجاحدة المنكرة ربما كانت وهماً خادعاً ، وسراباً لا معاً ، ولماذا تكون الكبرياء أقرب إلى الإنسان من التواضع ؟ وتبين له أننا نستطيع أن ننتزع السرور والفرح من الاستسلام والشقاء والعزلة ، ولقد هجرته آلهة اليونان التى لاتعرف الرحمة فأصبح فى حاجة إلى الإله الذى يشمله برحمته ويكلؤه بعنايته .

وفى ذات مساء زاره إما نويل هرمان فخت ، ابن الفيلسوف الكبير فخت ، وكان هوكذلك فيلسوفاً وأستاذاً للفلسفة فى جامعة تيبنجن ، وقد جاء ليشكره على حسن تقديره لأبيه وثنائه عليه ، وتجاذبا أطراف الحديث حتى انتقلا إلى الكلام عن النزعة الفلسفية الجديدة ، وكانت مذهب الفيلسوف الألمانى الكبير هجل ، ورفع هينى فجأة نفسه من فراشه مستعيناً بحبل كان معلقاً فوق رأسه ليمكنه من تغيير موضعه ، وقلما كان يفعل لعجزه عن الحركة ، وحرك بأصبعه جفنه المشلول ، وسأل الفيلسوف باهتمام قائلا :-

— قل لى بصراحة ، أيها الأستاذ ، هل تعتقد بالحياة الأخرى ؟ وهل تؤمن بأن الروح خالدة ؟

وكان هذا الأستاذ الشاب يرتدى معطفاً ضافياً أسود اللون ، فلما سمع سؤال

هينى أمر أصابعه على لحيته ، وداعب شعراتها ، وأجاب فى تؤدة ووقار «إنى أعتقد بوجود عالم الأفكار غير المنظور» .

«ولكنك لا تصدق بوجود إله – إله حى قيوم ؟» .

فأجاب الأستاذ فى غير تردد ، وقد هز رأسه «لا أصدق به» .

فأرخى هينى جفنه المشلول ، وارتمى على وسادته ، ولاذ بالصمت .

واسترسل فخت الشاب فى بيان رأيه قائلا «إنى أعتقد بالروح ، وأعتقد أن فينا شيئاً لا يهلك ولا يزول ؛ وقد وجد منذ الأزل ، وهو يبدو ويظهر ثم يختفى ويستتر ويعيد سيرته ، وأعتقد بالأفكار الكامنة فينا ، ولكن تصور شخصية الإله يناقض معتقداتى ، لأن الشخصية تدل على الضيق والانحصار» .

فدمدم هينى قائلا «وأنا لا أستطيع أن أتخيل أنه يمكن أن توجد أفكار قائمة بذاتها لم يتصورها إنسان» .

فحملق إليه الاستاذ مدهوشاً متعجباً ، وقال «أيمكن أن تكون قد صرت تعتقد بوجود إله له شخصية ؟» .

فأجابه هينى «صدقنى ياسيدى أن ارتدادى إلى هذا المذهب لم يكن بإرادتى ، – وذلك إذا كانت كلمة ارتداد تعبر عما هو حادث لى – ولقد كنت وأنا شاب مثلك – بل إلى سنوات قليلة مضت أو حتى أشهر – أعتقد أن الله لم يكن سواى . . . وغاية ما هنا لك أن نفقات تسلية الإله الذى لا يترفق بما فى جيبه ولا بشخصه باهظة ، ولكى يظل الإنسان قائماً بتمثيل هذا الدور عليه أن يكون مالكاً للمال الجم مستمتعاً بالصحة الموفورة ، وقد أدركت فى ذات يوم أننى لا أملك المال ولا الصحة ، فماذا أصنع ياسيدى ؟ وماذا تصنع لو كنت مكانى ؟ لقد استسلمت فهل تفهمنى ؟ لقد تنازلت عن ألوهيتى لله كما تنازل الجمهوريون الفرنسيون للويس نابليون» .

– «إنك هازل».

– «إنى أهزل فى الظاهر، ولكنى كعادتى أكون جاداً حينما أهزل، ويقال إن الإنسانية مريضة وإن الدنيا مستشفى عظيم، وسيكون الأمر أفظع والخطب أفدح ياسيدى إذا كان هذا النزل الدنيوى ليس له رب».

– «ألا يستطيع أن يحتمل الأوجاع والآلام بغير عون من الله؟ ألا تكفى معرفة أن الروح – روح الإنسانية – تبقى بعد الجسد؟ فكر فى سقراط وتذكر والدى».

– «إنى أفكر فيهما كثيراً، ومهما يكن من الأمر فإنه من الغرور والادعاء أن أقيس نفسى بهما، ولكن ماذا أصنع؟ فالله – أو ما قد يجوز أن أسميه الموت – قد غلبنى على أمرى، ولماذا أنكر هزيمتى؟ لقد أفسدت حياتى، وسرت سيرة سيئة، وهو الآن يرمقنى ساخراً، ويسألنى «ماذا صنعت بنفسك؟» ولكن لننظر الآن فيما يفعل، فإذا كان يريد أن يأمر وينهى فليأمر ولينه، ولم يعد لى مطمع، لا فى اللاهوت ولا فى السياسة، وعليكم أنتم أيها الشبان أن تواصلوا الثورة التى بدأتها فإنى أريد أن أموت فى سلام».

ورفع هينى صوته، ومضى يقول «لنتأمل قليلا فيما يستطيع أن يفعل، وليس أحب إلى نفسى ولا أيسر علينا من الخضوع لمشيئته، فماذا يريدنى أن أعمل؟ فلو جمعت عزيمتى كلها لما استطعت أن أفعل شيئا، ألا ترانى مريضا قد شفته تباريح الأسقام؟ فمنذ عام ونصف عام وأنا لا أستطيع الوقوف، أتريدنى أن أمشى بغير عكاكيز؟ وهل أستطيع أن أكون حراً وأنا ذلك المشلول المفلوج».

ثم خفض صوته وقال «إنى فى حاجة إلى الله، ففى الليل حينما تأوى زوجتى إلى فراشها أشعر بالوحدة، وينفر منى النوم، وأظل أتقلب فى الفراش،

وأتحول من جنب إلى جنب ، ويغشى جسمى الألم ، ويدب به من الرأس إلى القدم ، وفى كل لحظ أعتقد أن نهايتى قد دنت ، وحانت منيتى ، وفى مثل تلك اللحظات يؤنس وحشتى أن أفكر فى أن هناك فى السماوات – أو فى أى مكان آخر – من أستطيع أن ألجأ إليه فى كربتى وضائقتى ، ومن أتهمه وأدينه وألقى عليه التبعة » .

فضم فخت الشاب يديه وضغط أصابعه وأطرق برأسه وقال « إنى أقدر وأدرك ولكن . . . . » .

– « إنى أريد أن أعترف لك فيما بيننا لكى تحسن فهمى ، فاعلم أن المرض لم يضعف عقلى وأنى لم أتنازل بعد عن حقوق الروح ومطالبها ، ولم أصل إلى هذه الدرجة » .

وتناول هينى بيده اليمنى قطعة من الورق كانت موضوعة على منضدة إلى جانب فراشه وقال للأستاذ الفيلسوف « إذا سمحت لى أسمعتك هذه الأبيات التى نظمتها فى الليلة السالفة » .

وأخذ يلقى الأبيات بصوت خافت ، وهى أبيات تكشف عن حبه للحياة ، وفرط تعلقه بها ، وحرصه على متعها ولذاتها .

وأصغى الفيلسوف إليه بانتباه وهو يلقى الأبيات ، فلما فرغ هينى من إلقائه سأله عن رأيه وقد ألقى بالورقة من يده .

فقال له الفيلسوف « إنها من أجمل ما قلت وأشده إثارة للعاطفة » .

والواقع أن هينى الشاعر الساخر والناقد الفيلسوف آثر أن يقطع علاقته بالأديان واختار لنفسه أن يتصل بالله مباشرة .